من تراب الطريق (٥٣٩)

تداول العقائد والأعمال في تشكيل القواعد والأصول! (*) (١)

لا تجرى حياة الآدميين جرياناً عشوائياً خالياً من القصد ومن الضوابط فى أحيان كثيرة .. ومن يراقب ممارسة الآدمى لحياته فى جماعة ما ، فى زمن ما ، فى عصر ما يلاحظ أنها تجرى على وفق ضوابط تفصيلية مشتركة سائدة فى سلوك الجماعة .. ليس لها حصر لفظى محدد دائماً يمكن لكل فرد تذكره وتذكر حدوده ومعالمه ، وإنما يمكن لغالبية الناس الالتفات إليه فى عاداتهم العملية وتصرفاتهم الفعلية .

بيد أن الجماعات كافة ، تتصور أن فى مكنتها اختصار وتلخيص وتركيز هذه التفصيلات الكثيرة فى قواعد وأصول عامة قابلة للحفظ والتذكر والتذكير بها .. وأنه من ثم يمكن حمل سواد الناس على استيعاب ووعى هذه القواعد والأصول وعلى اتباعها دائماً أو فى معظم الأحوال ، ما دامت الجماعة ودام رضاء غالبيتها الفعلى أو الظاهرى عنها .

وهذا التصور قديم ، ومازال موجوداً فى بنية النظام القانونى والقضائى فى المجتمعات المتحضرة .. وهو إن أصاب هدفه جزئياً ، أخطأه فى بعض أو معظم الأحيان .. ومن ثم عاشت هذه القواعد والأصول أعماراً أطول من عمر اتباع الناس لها اتباعاً فعلياً حقيقياً . وبات عدد مهم من هذه القواعد والأصول لا يتبع ولا يشاهد فى سلوك أغلب الناس ، وإنما بقى مع ذلك وبرغمه موضع احترام نظرى فى الظاهر ، ولا يزال من ناحية أخرى يحكم

(*) المال ١٤/ ١١/ ٢٠١١

كبرياء الناس وتماجدهم وكل ما يحرصون عليه من مظاهر المجد والفخار .. ولا يزال أيضاً يحكم مؤسساتهم ويجرى الحديث عنه فى نظمها ويتغطى أو يلتفح به سلوك الناس فى حياتهم .. خاصةً كانت أو عامةً .. وتملأ ضوضاؤه وصخبه ولفظه تملأ أفواههم وأشداقهم وتجرى على ألسنتهم وتحتشد بها محافلهم !!

ساعد على هذه المفارقة ، ميل أغلبية الناس من قديم الزمن إلى أن يعيش كل واحد منهم حياتين متلازمتين ولكنهما مختلفتان إحداهما عن الأخرى .. اختلافاً كثيراً أو قليلاً .. هذه مستورة أو شبه مستورة عن عيون الآخرين والغرباء ، وتلك ظاهرة مبداة يمشى بها صاحبها فى محيطه وبين المتعاملين معه ممن لا شأن لهم بداخلياته .. ويجتهد ما وسعه الجهد فى الإبقاء على ما يعرفه الغير عنها فى حدود هذا الظاهر البادى أو المبدى .. يساعده على ذلك أن هؤلاء لا يتجاوزون الظاهر ولا ينقبون عما عساه يكون وراءه أو تحته .. لأنهم عادةً لا يهتمون بذلك .. خاصةً إذا ما كان يتعلق بالعاديين وسواد الناس وعامتهم !

وهذا الازدواج يتطور مع تطور أخلاق الأغلبية وسلوكها وعاداتها ضد النواميس والضوابط والأصول المقررة فيها من قديم .. ولم تعد غالبية الناس الآن تخفى أو تتستر على ما كانوا وكان آباؤهم يعدونه من قبيل الفحش أو الغش أو الغدر أو الخطف أو الخيانة أو الرشوة أو التزوير أو النصب .. إذ لم تعد تلك الضوابط والأصول التى كانت مقررة إلاّ حبائل ووسائل لاستراق ثقة السذج وإيقاع المغرور وخديعة الجاهل أو الغبى .. ومن ثم أخذت الدعامات الأساسية للمجتمعات الحالية أخذت تتداعى .. ولا

يغيثها من هذا التداعى كثرة الإحصاءات والبرامج والخطط والاتفاقات والمؤتمرات والمعاهدات والأنظمة والقوانين .. لأن هذه كلها لا تتمتع بثقة وقبول عموم الناس .. ولم يعد الكلام ينفع ولا يشفع ، أو يملأ عقول الناس ونفوسهم بإمكانات وحلول يتولى أمرها سواهم .. بينما جعل هذا الخلل القديم يستفحل فى عقول ونفوس شعوب أهل الأرض قاطبةً !

ثم إن الأصول العامة ، ومبادئ الأخلاق ، تخضع للشيخوخة وعوارضها بفعل الزمن كما يخضع كل ما مع الآدميين أفراداً وجماعات .. بفارق واحد : أن الأصول والمبادئ معمرة تعيش قروناً بعد زوال ونسيان ما كانت قد أسبغته خلال بقائها .. وخلال فترة هذا البقاء تنمو حتماً بذورٌ لأصولٍ ومبادئ غامضة جديدة .. تتسرب إلى الظهور ببطءٍ فى الخفاء ، ثم إذا قويت يتزاحم عليها الناس ضمن الموجود المتبع فى وعى الآدميين ، ويتداخل الموجود مع المنتحل ، تداخلاً لا يدركه غالبية الناس إلاَّ حينما يشعرون بأن ما يتداولونه نقلاً عن آبائهم قد فقد مكانته ومعناه وفاعليته واحترامه .. وعند ذلك فقط يعانون الإحساس بقدر ما فقدوه تحت ضغط الأزمات ووقع الفتن والكوارث !

من تراب الطريق (٥٤٠)

تداول العقائد والأعمال في تشكيل القواعد والأصول! (*) (٢)

الاختلاط والتزاوج الذى يجرى بين الموجود فى وعى الناس من الأصول والمبادئ، وبين المنتحل أو الطارئ أو الوافد ليس مفاجئاً كما يبدو لكثير من الناس .. وإنما بدا لهم كذلك لطول الغفلة وقلة الملاحظة وعدم المبالاة والاستسلام التام المريح !! لمطالب ومصالح وشهوات الحاضر التى تداعت بسببها دون أن يشعر الناس كل دعائم ما كان موجوداً وبات عارياً ضارياً !

هذا مع العلم بأن الأصول والمبادئ الجديدة لا تستتب ولا تستقر مكانتها فى نفوس وعقول الكافة، ويتأكد لها لديهم معنى إيجابى مطرد وقوى يكون دعامةً لمعالم حضارة جديدة، إلاَّ بعد أن تجتاز مراحل الحيرة والتخبط فى التجربة والخطأ، واتساع مساحة العُرْى بكل ما تحتويه من اضطرابات ومحن وضياع للفرص الطيبة وخسارة فى الأنفس والأموال والجهود !

ذلك لأن احتشاد الآدميين فى جماعات كبيرة، وإن كان يعينهم فى البدايات على المزيد من الاتحاد والثقة والقوة، إلاَّ أنه يسوقهم فى النهايات إلى مصاعب حين تستفحل العيوب فى الجماعة، وتتفاقم الآفات والخلافات، وتتمكن منها الأغراض والشهوات، والمواجد والأحقاد .. فيصير علاجها عسيراً شديد العسر والصعوبة، مليئاً بالنكسات والانتكاسات، طويل الأمد لطول أمد الفرقة والريبة وسوء الظن وقلة الصبر ووهن العزائم وضعف الإيمان بالنفس والمستقبل !

(*) المال ١٥/ ١١/ ٢٠١١

خلال هذه الآماد الطويلة من الخفوت والاعوجاج، يتداول على قيادة الناس فى محنتهم الطويلة ! جاهلون وأشباه رجال وكاذبون وخونة ومضللون، ويتوارى أو يجبن أو يتشكك فى نفسه القوى والصادق والقادر والمخلص، ويدفعهم إلى التوارى أو الانكفاء أو الترفع ما يتعرضون له ويلاقونه من الأذى والمكائد والإبعاد وتدمير السمعة بل وتهديد الحياة ذاتها .. حين ذلك تصعب رؤية الواقع لدى معظم الناس، ويقل على نحو غير عادى استعدادهم للتعقل والفهم، نتيجة أزمات اعتبارهم على عدم احترام العقل وعلى الخفة أو الغفلة أو عدم المبالاة بغير الشهوة والمصلحة !

وقوة الجماعة محصلة فى الواقع لقوة أفرادها العقلية والنفسية والبدنية، وهذه القوة لا تجىء أو تذهب بمشيئة هذا أو ذاك من البشر، إنما تجىء على أكتاف وسواعد غالبية الأفراد عند تساندها وتماسكها، وتذهب حينما تكل تلك الأكتاف المتساندة أو تضعف، أو تهن وتتفكك تلك السواعد التى كانت متماسكة . وهذا التكاتف والتساند والتماسك وليد عقيدة صادقت ووجدت استعداداً للعمل لدى معتقدين وأيدٍ تحمل تلك العقيدة فأنتجت مزيداً من العمل الذى أنتج مزيداً من قوة العقيدة .. وهكذا توالى العطاء والأخذ والأخذ والعطاء بين العقائد والأعمال وبين الأعمال والعقائد.

لا يقوم مقام هذا التداول مجرد كلام مهما كان بياناً للعقيدة أو تعريفاً بالرأى أو الخطة أو المذهب السياسى أو الاقتصادى أو الأخلاقى أو الاجتماعى .. وليس يجدى فى ذلك بلايين المطبوعات والتسجيلات التى لا تنقطع فى الحضارة الحالية التى لم تفلح فى إنقاذها مما يهددها ويهدد الجماعات الإنسانية التى تعيش هذه الحضارة .. هذه المطبوعات والتسجيلات المنهمرة

قد تؤدى بقارئيها وسامعيها إلى زيادة قوة المعرفة إلى أقصى حد ، ولكنها قد تؤدى إلى هدم الفنون والآداب وما إليها ، بسبب ما يعترى سلوك الآدميين من انبهار بمنتجات هذه الحضارة ، ومن غفلة ممزوجة برغبة وشوق وإصرار على أنانية لا يستطيعون أن يروا حياتهم إلاَّ بها ومن خلالها !!

إن الغاية الأساسية التى يراها الإنسان العادى فى ذلك السيل الجارف من المطبوعات والتسجيلات ، هى أن يتعلم ويعرف ليكسب كما كسب المؤلف والمترجم والناشر ، كل من حرفته وعمله ، وليرتد كسبه على حياته الخاصة بمزيدٍ من الراحة والتنعم اللذين يستمتع بهما أهل الرخاء فى مجتمعه!

من تراب الطريق (٥٤١) تداول العقائد والأعمال في تشكيل القواعد والأصول!(*) (٣)

ازدياد الفرص المتاحة فى الحياة ، بمضى الزمن ، واقع موجود يصل الحيوات الخاصة بمزيد من فرص الراحة والتنعم واللحاق كما قلنا بأهل الرخاء فى المجتمع .. وهذه نهاية اجتماعية سائدة فى حضارة هذا الزمان ، لا يفكر أحد فى تغييرها أو تطويرها ليتخلص من الاعتماد على المال والرخاء فى إرضاء نفسه ومن فى حكمها لديه من الأبناء والأهل والأصدقاء والأقارب .

إذ قد أخفتت آليات هذه الحضارة وماديا تها وضوضاؤها أخفتت نداءات الأديان ، وخفتت بسببها أصول أنظمة الرهبنة وفرق التصوف ، وأعان على هذا القائمون على شئون الأديان وشئون تلك الفرق والأنظمة باشتغالهم عنها بمصالحهم الخاصة وأطماعهم الذاتية !

ولكن ؛ لماذا لم يطلب الآدميون المعرفة والعلم والمهارة ؟ هذا السؤال تتوقف عليه أعمار الجماعات والحضارات وبقاؤها وزوالها فى سياق إدمان الجرى وراء القوة والسلطان والغنى بلا التفات لاستمرار بقاء الحياة واستمرار ترقيها لدى مجموع الآدميين .. وقد ساق ذلك إلى الاضمحلال والتبعية والحاجة ، وانتهى فى الماضى بالحضارات والجماعات انتهى بها إلى التحلل والزوال . فلماذا نتوقع نحن الآن ألا يصيبنا ما سلف أن أصاب من قبلنا ونحن مثلهم وربما أكثر منهم نجرى وراء المزيد غير المسبوق من

(*) المال ١٦/ ١١/ ٢٠١١

الماديات والآليات والقوى، ويزداد إغفالنا غير المسبوق أيضًا لضرورة استمرار الحياة بكل أنواعها، واطراد ترقيها لدى مجموع البشر بل لدى مجموع الأحياء.

إن عموم البشر الآن فى غيبوبة تكاد تكون مطبقة، غيبوبة عن ذلك العنصر المهم جدًا الذى غاب عن نظر الحضارات السابقة وعن التفات الجماعات التى انتهت أو ذوت أو انكمشت بعد الإشاحة عنه أو عدم التبصر به والالتفات إليه.

ولا تتحقق الإفاقة من هذه الغيبوبة كما قلنا بالكلام مقولاً أو مكتوبًا، وإنما يمكن أن تتحقق بتجميع وتنظيم سلوك وتصرفات القليلين المصممين على نجاة أنفسهم وجماعتهم، وعلى مواجهة الناس ومجابهتهم بقدرتهم هم على الحياة النظيفة من الداخل ومن الخارج .. البعيدة عن الشره والطمع والدغل والإفراط والتفريط .. المليئة بالوفاء والمعونة والاهتمام بكل من حولهم وما حولهم، مع اعتدالهم فى السعى للرزق وإعراضهم الخالص المخلص قبل سواهم من خلق الله عن الاحتياج للقوة أو الثروة أو الترف كبابٍ أو وسيلةٍ للاستمتاع أو الإحساس بالمكانة أو الأمان.

إن أولئك القليلين كثرة بالنسبة للفرد المنفرد .. وهذه حال أغلب الناس عادة فى كل جماعة ..وهم يكونون جماعة فى عين وعقل وقلب كل من يراهم ويراقبهم ويشهد حياتهم وانتظامها ونظافتها وحظها من الثقة فى حاضرها ومستقبلها، ويصبحون باستقامتهم وصلاحهم وعزمهم عنوان حياة جديدة؛ تخالف مخالفة تكاد تكون تامة ما يراه الناس أو يسمعونه فى محيطهم الخابى .. ثم تبدأ محاكاة حياة هؤلاء القليلين، ثم يترسمهم الناس عمدًا

وقصدًا .. وهكذا يزداد ويكثر مع الأيام أولئك القليلون ويصيرون كُثرًا ، وتأخذ الجماعة طريقها إلى الشفاء والصحة إن اتسع لها الزمن والظروف إلى ذلك ، ولم تعجل بها أقدارها . وهكذا يمكن أن يجد الفرد ما يشتاقه وما يبحث عنه فلا يلقاه فى بيئته ! ، ويلاقى ما يتمناه فى الجماعة ممن يعيشون على النقاوة والصدق والتواضع والمحبة والثقة ، ويلقاه فى نضارة وحماس الداخل والخارج لآدميين أحياء حياةً نظيفةً منتعشة مثوبة متطلعة إلى ما تظنه خيرًا للإنسانية والجماعة .. تتجلى قيمة ذلك بالمقارنة والمقابلة بما ران من بشاعة وضحالة وركود الآمال والتعلق بالمحال فى الجمهور العريض المريض الحاضر الغائب المحاصر بذوى الأغراض والأمراض ، المحجوب عنه ضياء العقل وأنوار الهداية والحياة .